الخلفيّة الفكريّة لفهم البلاغة العربيّة

الدّكتورة ريما حسين أمهز
دكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها ، كلّيّة الآداب والعلوم
الإنسانيّة ، الجامعة اللّبنانيّة ، لبنان
rimaamhaz1980@gmail.com

Intellectual background to understanding Arabic rhetoric

Dr. Rima Houssein Amhaz
Ph.D. in Arabic Language and Literature , Faculty of Arts and Humanities , Lebanese University , Lebanon

الملخص:-

نظرًا إلى التّأرجح الدّلاليّ الّذي وسم مصطلح البلاغة، والاضطراب الّذي اعتراها بسبب اختلاف الدّارسين حول مفهومها، بحيث لا نجد تحديدًا واحدًا جامعًا وشاملًا تمّ الاتّفاق عليه في المدوّنة البلاغيّة العربيّة لتعيين المقصود منها، ونظرًا لرحابة مجال البلاغة واتّساع مداها حيث يقول حازم القرطاجي: كيف يظنُّ إنسانٌ أنَّ صناعة البلاغة يتأتّى تحصيلها في الزّمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار؟ كان لا بدّ من العودة إلى تاريخ البلاغة العربيّة بجميع مراحلها لنبسط هذا التّاريخ بوصفه منطلقًا لدراسة البلاغة وبلورة مفهومها، فالبلاغة العربيّة في طور نشأتها ونموّها لم تتّخذ لنفسها خطًّا متصاعدًا من التّطوّر، ولا يجوز لنا أن نعاينها من خلال مرحلة ثابتة من تاريخ حياتها لأنّ ذلك يجعلنا أسيري ظروف مرحلة لسنا ملزمين بها.

ولأنّ العلاقة ما بين البلاغة والنّقد من جهة، وما بينها وبين الأسلوبيّة من جهة ثانية هي الّتي تشوّشت، وصارت غامضة في أذهان معظم الباحثين بسبب الاعتماد على كتاب "التّلخيص في علوم البلاغة" للقزويني الخطيب، جاء هذا البحث ليعالج هاتين العلاقتين وينطلق منهما إلى فهم للبلاغة يرتكز على الخلفيّة الفكريّة الّتي انطلق منها البلاغيّون العرب.

الكلمات المفتاحيّة : اختلاف ، أسلوبيّة ، بلاغة ، ترادف ، نقد .

Abstract:-

Due to the semantic fluctuation that characterized the term rhetoric as well as the confusion that it experienced regarding its concept between scholars, in a way we can't find a single and comprehensive definition that was agreed upon in the Arab rhetorical code to define its intended purpose, in addition to the view of the vastness of the field of rhetoric and its breadth where Hazem al-Carthaji says: 'How does a person assume that rhetoric construction will be achieved soon, which is the sea that no one has reached the end of with the exhaustion of ages?', itt was necessary to go back to the history of Arabic rhetoric in all its stages in order to simplify this history as a starting point for studying rhetoric and crystallizing its concept. In addition, Arab rhetoric in the stage of its emergence and growth has not taken an escalating line of development for itself. Thus it is not permissible for us to examine it through a fixed stage in the history of its life, because this makes us Captives of the circumstances of a stage we are not obligated to.

Furthermore, because the relationship between rhetoric and criticism on one hand, and between stylistics on the other hand, is the one that has been confused, and has become ambiguous in the minds of most researchers due to the reliance on the book "Summarizing the Rhetoric Sciences" by Al-Qazwini Al-Khatib, this research came on the sense to address these two relationships and based on them to reach rhetorical understanding based on the intellectual background from which the Arab rhetoricians started.

Key Word : Difference , stylistic , rhetoric , synonyms , criticism .

المقدّمة :

لدراسة بلاغتنا العربيّة درسًا منظّمًا، لا يمكن لنا أن ننطلق من تعريفٍ محدّدٍ لها، لأنّنا بذلك نكون قد انطلقنا من اتّجاه محدّد من اتّجاهاتها، ومدرسة محدّدة من مدارسها، ونظرًا لرحابة مجال البلاغة العربيّة واتّساع مداها، فإنّ العودة إلى تاريخها بجميع مراحلها، كفيلة بالهداية إلى ما هو أفضل، فهي في طور نشأتها ونموّها لم تتّخذ لنفسها خطًّا متصاعدًا من التّطوّر، ولا يجوز لنا أن نعاينها من خلال مرحلة ثابتة من تاريخ حياتها لأنّ ذلك يجعلنا أسيري ظروف مرحلة لسنا ملزمين بها، فكيف الحال إذا كانت تلك المرحلة هي مرحلة كتاب "التّلخيص في علوم البلاغة" للقزويني الخطيب، وكانت الظّروف الّتي أحاطت به هي الظّروف الّتي تلزمنا؟

ولأنّ العلاقة ما بين البلاغة والنّقد من جهة، وما بينها وبين الأسلوبيّة من جهة ثانية هي الّتي تشوّشت، وصارت غامضة في أذهان معظم الباحثين بسبب الاعتماد على كتاب "التّلخيص في علوم البلاغة" ، جاء هذا البحث ليعالج هاتين العلاقتين وينطلق منهما إلى فهم للبلاغة يرتكز على الخلفيّة الفكريّة الّتي انطلق منها البلاغيّون العرب.

أوّلا: بين البلاغة والنقد:

لا يخلو البحث في البلاغة والنّقد من غموض، ومشكلة معرفيّة تتجلّى في الخلط بينهما، وقد وجد بعض الدّارسين في كتاب التّلخيص الّذي رسخ مفاهيم خاطئة عن البلاغة، منتجعًا لهم، فكاد عبد العزيز عتيق أن يعدّها مع النّقد وجهين لحقيقة واحدة، لولا اعتماده في فهمه لها عن كتاب التّلخيص عندما رأى أنّها تمدّ المتعلّم بكلّ القواعد والعناصر البيانيّة الّتي تساعده على جودة التّعبير بينما يوضح النّقد النّظريّات والأصول الّتي تقاس بها قيمة التّعبير من النّاحية الجماليّة (عتيق،١٩٧٢، ص ٢). وعدّها محمّد مندور "من أدوات النّقد ولكنّها ليست إيّاه" (مندور، ١٩٩٦، ص، ٩). يعني هذا أنّها بالنّسبة إليه، تلك الصّور البيانيّة والبديعيّة الّتي أوردها التّلخيص، خصوصا أنّ الاستعارة عنده "أمر أصيل في الشّعر، بل... إنّها خيوط نسجه وهي منه كالنّحو من اللّغة" (مندور، ١٩٩٦، ص، ٤٧)، ولا يمكن للنّقد أن يحسن استيعابها في الشّعر إلّا بوساطة البلاغة المتخصّصة بدراسة تلك الصّور.

وقارب محمّد غنيمي هلال فكرة التّساوي ما بين البلاغة والنّقد حين رأى أنّ البلاغة كانت في الأصل نقدًا، ثمّ توجّهت نحو الاستقلال عنه بفعل محنة الدّراسات الأدبيّة العربيّة

في تلك الحقبة، تلك الدّراسات الّتي لم تستطع أن تشقّ لنفسها طريقًا تطوّريًّا مبنيًّا على جهود جميع السّابقين، ومستفيدًا من ثقافة العصر استفادة صحيحة، تمامًا كما حدث للدّراسات الأدبيّة القديمة في أوروبا، إذ تعرّضت لمثل هذه المحنة حين جعل النّقّاد هناك من وجوه البلاغة نماذج تحاكى ، لا وسائل فنّيّة تعين على الأصالة وتنهض بالأدب (هلال، ١٩٩٧، ص ٢٤٩).

ورأى المعاصرون الأسباب الّتي دفعت نقدنا القديم باتّجاه البلاغة كلّ من زاويته الخاصّة. فإذا رأى هلال أنّ العناية بالبيان والبديع كانت نتيجة حتميّة للجدل الّذي دار حول أدب القدماء والمحدثين (هلال، ١٩٩٧، ص ٢٤٩)، رأى إحسان عبّاس أنّ انتشار الفوضى الذّوقيّة في مجال النّقد، كان من الدّوافع الّتي دفعت قدامة بن جعفر الحريص على أن يعلّم النّقد، إلى الانشغال بالتّحديد والتّقعيد (إحسان عبّاس،١٩٨٣، ص ١٩٤).

ورأى المعتزلة في الشّعر العربي مصدرًا للمعرفة، وفي البلاغة عنصرًا هامًّا في الإقناع، فاندفعوا نحو استبانة المقاييس البلاغيّة والنّقديّة (إحسان عبّاس،١٩٨٣، ص ٦٦-٦٨).

"ووجد دارسو مطلع عصر النّهضة في كتاب "التّلخيص" مرجعًا يجمع ويلخّص لهم نتاجات الجهود المبذولة دون أن يتنبّهوا إلى خطورة منهجه التّعليمي لا الإبداعي. والفارق كبير بين المنهجين؛ إذ يقدّم المنهج التّعليمي البلاغة قوالب جافّة وعقيمة، ويراها المنهج الإبداعي على أنّها تحويل القيم الفنّيّة الّتي يكتنزها النّصّ إلى مفاهيم جماليّة" (زيتون، ٢٠١١، ص٢٥).

وقد ميّز هؤلاء الدّارسين بين البلاغة والنّقد بناء على اختلاف منهجيهما في تناول النّصّ وبقطع النّظر عن الأجود بينهما أو الأسوأ. ولكن إذا عدنا إلى المراحل المختلفة لتطوّر البلاغة فماذا نجد؟

استأثرت البلاغة بنصيب وافر من مجهود المهتمّين بالتّراث العربي على مرّ العصور، وقد شملت هذه المؤلّفات معظم جوانب البلاغة، وأسهمت إسهامًا كبيرًا في تعميق معرفتنا بها وبأعلامها، والكشف عن اتّجاهاتها الرّئيسة، والاهتمام بإبراز مواضعها ودراسة مصطلحاتها.

انطلق تصوّر القدامى لمفهوم النّقد من الدّلالة اللّغويّة لمادّة "نقد" الّتي تدور حول محورين: يتّصل الأوّل بنقد الدّراهم لتمييز جيّدها من رديئها، أمّا الثّاني فيتّصل بذمّ

الآخرين وعيبهم. والمعنيان قريبان، ولكنّ المعنى الأوّل أوسع دائرة من الثّاني لما يشتمل عليه من معنى فحص الجيّد من الرّديء؛ أمّا الثّاني فيقتصر على معنى الذّمّ وإظهار العيوب، ثمّ نقلت دلالة المعنى الأوّل من مجالها السّابق (نقد الدّراهم) إلى نقد الأساليب وذلك لقابليّة التّمييز بين الأشياء الّتي تتضمّنها كلمة النّقْد في أصلها اللّغويّ (بدوي، ١٩٥٨، ص ١). وبقي للمعنى الثّاني ظلّ مؤثّر، تحكّم في جوانب غير قليلة من النّقد، ولا سيّما في الكشف عن العيوب الّتي وردت في شعر مجموعة من الشّعراء.

ويبدو أنّ خلفًا الأحمر، من أوائل من وثّقوا العلاقة بين نقد الدّراهم ونقد الشّعر، وبمعنى آخر هو ممّن نقل الدّلالة من "نقد الدّراهم" إلى "نقد الشّعر" دون أن يستعمل كلمة نقد، إنّما استعمل دلالة الكلمة فقط، وذلك في كلام له أورده محمّد بن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشّعراء"، حيث يقول: وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشّعر واستحسنته، فما أبالي ما قلت فيه وأصحابك، قال: إذا أخذت درهمًا فاستحسنته، فقال لك الصّرّاف: إنّه رديء، فهل ينفعك استحسانك إيّاه؟" (ابن سلّام، ٢٠٠١، ص ٧) فقد ربط بين عمل الصّيرفي في تمييز الدّراهم ونقدها، وصنيع النّقّاد في تمييز الشّعر ونقده.

ودخلت كلمة نقد في الاستعمال الأدبي في القرن الثّالث الهجري من دون أن نجد في الدراسات أي بذور جنينيّة للقسمة المعروفة ما بين البلاغة والنّقد، وبما أنّ الاهتمام بالشّعر كان يستحوذ على الذّوق العربي آنذاك، فقد كان النّقد المرويّ لنا نقدًا مبنيًّا على الذّوق الفطريّ، همّه محصور في المفاضلة بين الشّعراء، وفي تمييز الشّعر من رديئه، كما في قول بعضهم: رآني البحتري الشّاعر العبّاسي ومعي دفتر شعر فقال: ما هذا؟ فقلت: شعر الشّنفرى (الشّاعر الجاهليّ) فقال: وإلى أين تمضي؟ فقلت: إلى أبي العبّاس (المبرّد وهو عالم لغة ونحو مشهور) أقرأه عليه، فقال: قد رأيت أبا عبّاسكم هذا منذ أيّام عند ابن ثوابة، فما رأيته ناقدًا للشّعر، ولا مميّزًا للألفاظ، ورأيته يستجيد شيئا وينشده، وما هو بأفضل الشّعر، فقلت له: أمّا نقده وتمييزه، فهذه صناعة أخرى (الجرجاني، ١٩٧٨، ص ٢٥٣).

فالنّقد في القرن الثّالث الهجري إذًا لم يكن مبنيًّا على قواعد فنّيّة، ولا على ذوق منظّم ناضج، وكلّ ما نجده عند الدّارسين هو محاولة جادّة للتّعرّف إلى نتاج ذلك العصر بقدر ما تيسّر لهم من ثقافة وظروف مؤاتية. فهذا ابن سلّام في طبقاته الّتي يعدّها الدّارسون أقدم وثيقة في تاريخ النّقد لا نكاد نعثر فيها على ذلك المصطلح مع أنه هو نفسه كان قد مارس

النّقد ممارسة عمليّة على وفق تصوّره، وتصوّر علماء عصره لمفهوم النّقد، ولكنّهم كانوا يعبّرون عن هذه الممارسة بعبارة "العلم بالشّعر" ((ابن سلّام، ٢٠٠١، ص ٧).

وجاء القرن الرّابع الهجري ليعالج بقليل من النّضج مسألة طرحها الجاحظ، أعني بها مسألة اللّفظ والمعنى حين أعلن: "إنّ المعاني مطروحة في الطّريق... وإنّما الشّأن في لإقامة الوزن وتخيّر اللّفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحّة الطّبع وجودة السّبك" (الجاحظ، ١٩٦٩، ١٣١/٣). وقد قسمت هذه المسألة الدّارسين إلى تيّارين: واحد معنوي، وآخر لفظي. يعني هذا أنّ هذا القرن انبرى لمعالجة أكثر المسائل النّقديّة جدّيّة بقطع النّظر عن مستوى المعالجة.

ويبدو أنّ أقدم محاولة اتّخذت هذا المصطلح عنوانًا لهذه الممارسة العمليّة للنّقد ووصلت إلينا كانت على يدي قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشّعر"، وقد صرّح فيه بأنّ النّقد "تمييز جيّد الشّعر من رديئه" (قدامة، ٢٠٠٦، ص ٢) دون أن يقصد بذلك ما يعنيه مصطلح النّقد في عصرنا الحاضر، ومضى العلماء بعده باتّخاذ النّقد في عنوان مؤلّفاتهم، كما في كتاب القيرواني "العمدة في صناعة الشّعر ونقده" (بدوي، ١٩٥٨، ص ٢).

وإذا كنّا لا نعثر على تعريف محدّد دقيق لمفهوم النّقد قبل قدامة بن جعفر، فإنّ النّقد التّطبيقي الّذي وصل إلينا من خلال العصور العديدة الّتي سبقت عصر قدامة، يكشف لنا عن طبيعة تصوّرهم لمفهوم النّقد، وهو مفهوم، وإن كان يختلف من بيئة إلى أخرى يكاد يلتقي عند مفهوم الدّلالة اللّغويّة لمادّة "نقد"، سواء كان ذلك في نقد الدّراهم لتمييز جيّدها من رديئها، أم في عيب الآخرين مع ملاحظة أنّ المعنى الثّاني كان أكثر شيوعا وسيطرة على أذهان النّقّاد، ولا سيّما في بيئة النّقّاد المحافظين الّذين تعصّبوا للقديم، كما ظلّ هذا المفهوم- وهو عيب الآخرين- بعد عصر قدامة يتمثّل في بعض الأعمال الّتي تعصّبت على مذهب أبي تمّام في الشّعر، وشخصيّة المتنبّي وشعره.

ولم يتحرّر النّقّاد القدامى من هذا المفهوم إلّا في عملين نقديّين تمثّلا في كتاب "الموازنة بين الطّائيّين" للآمدي، و"الوساطة بين المتنبّي وخصومه" لعبد العزيز الجرجاني، فقد حاول صاحباهما أن يقوما بتطبيق عملي سليم لمفهوم النّقد، يقترب من المعنى الأوّل لمفهومه، وهو نقد الدّراهم لتمييز جيّدها من رديئها، أو من تعريف قدامة حين صرّح بأنّ النّقد يبحث في تحليل جيّد الشّعر من رديئه.

وتبيّن الجولة في القرن الرّابع الهجري أنّ الدّارسين في هذا القرن لم تتوزّعهم التّسميتان: النّقد والبلاغة، وإن تنازعتهما نزعة البحث عن القيم الفنّيّة لاستخلاص المفاهيم الجماليّة من جهة، ونزعة التّقعيد والتّعليم من جهة ثانية، ولا نجد في كلّ ذلك ما يدلّ على أنّهم في ما عالجوه كانوا يقصدون معالجة أمرين مختلفين، ولكنّهم كانوا يحسبون أنفسهم يعالجون أمرا واحدا من وجهات نظر مختلفة.

ويأتي القرن الخامس الهجري/ قرن القمّة، فنجد أنّ دراسة النّتاج الإبداعي قد بلغت من النّضج مبلغا مرموقًا على يد علمين كبيرين هما: ابن سنان الخفاجي في كتابه" سرّ الفصاحة" وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز". وممّا يلفت الانتباه أنّ الأوّل قد سمّى العمل الإبداعي (فصاحة)، وسمّاه الثّاني بلاغة، وإذا اتّضح أنّ الرّجلين قد سميّا دراسته (سرًا، واسرارا ودلائل)، وفي هذه التّسميات من العلميّة ما فيها، خصوصا بما تتضمّن هذه الكلمات من اتّجاه وصفي تقريري حيث يفسّر الجرجاني الكشف عن الأسرار بأن " تضع اليد على الخصائص الّتي تعرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدة واحدة، وتسمّيها شيئا فشيئا" (الجرجاني، ١٩٧٨، ص٣١). والوصف والتّقرير والإحصاء أهمّ مقوّمات العلميّة. ولا يعدم الخفاجي مثل هذه الرّوح العلميّة حيث كان يفتقر إلى تأمّل الدّيوان الكامل حتّى يظفر منه بالكلمات اليسيرة فيوردها مثالا" (الخفاجي، ١٩٦٩، ص ٦٧).

وأهمّ ما يجب أن نسجّله هنا هو أنّ هذا القرن قد سمّى دراسة النّتاج الأدبي (سرّ الفصاحة) و(سرّ البلاغة). وإذا سجّلنا على الخفاجي نزعته التّعليميّة في جوانب من سرّ الفصاحة، وللجرجاني نزعته التّقريريّة الوصفيّة في معظم ما كتبه، فهذا لا يعني أنّهما قاما بعملين مختلفين، بل توجّ÷ا إلى المسألة نفسها من منظارين مختلفين، ولم يكن يخطر ببالهما أنّ هناك نقدا متميّزا عن البلاغة. فالعمل الإبداعي بلاغة، ودراسته الكشف عن (سرّها) أو (أسرارها).

أمّا في القرنين السّادس والسّابع، فلم يخطر ببال أحد من النّقاد أنّ دراسة النّتاج الأدبي قد تحتاج إلى مستويين مختلفين من التّ،اول (نقد أو بلاغة) مع أن النّزعة التّعليميّة (وتقعيد القواعد) قد اشتدّت في هذين القرنين على حساب النّزعة التّقريريّة الوصفيّة.

إذًا، فالبلاغة هي النّقد عند القدماء، والتّمييز بينهما حديث ناجم عن العودة إلى زمن "المفتاح" و "التّلخيص"، لا إلى زمن "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز". وإذا كانت علاقة البلاغة بالنّقد علاقة ترادف، فما هي علاقتها بالأسلوبيّة؟

ثانيًا: البلاغة والأسلوبيّة:

تقيم البلاغة والأسلوبيّة منذ زمن علاقات وطيدة: تتقلّص الأسلوبيّة أحيانا حتّى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج التّواصل البلاغي، وتنفصل أحيانا عن هذا النّموذج وتتّسع حتّى لتكاد تمثّل البلاغة كلّها باعتبارها "بلاغة مختزلة" (جينيت، ١٩٧٢، ص ١٨٤- ١٩٦).

تركّز الأسلوبيّة في جانب من جوانبها على الجانب الجمالي، وأثر اللّغة المستخدمة في النّصّ على القارئ، أي أنّها تتجاوز الجانب الوظيفي للّغة إلى الجانب الجمالي الّذي يجعل النّصّ ذا خصوصيّة أدبيّة تحتاج إلى قدر من التّحليل والتّفسير. ولّما كانت الأسلوبيّة تهتمّ بدراسة الجانب الجمالي في الظّاهرة اللّغويّة، وأثر ذلك على المتلقّي الذّي يتعامل مع النّصّ ويقوم باستيعابه، فإنّها ترتبط بشكل أو بآخر بالدّراسات البلاغيّة القديمة، وترتبط إلى حدّ ما بجهد البلاغيّين العرب القدماء في هذا المجال، فنحن لا نستطيع أن نعزل الأسلوب عن الموروث البلاغي القديم، قد نجد بعض الاختلاف، ولكنّنا مع ذلك نجد كثيرًا من نقاط الالتقاء والاتّفاق لأنّ كليهما يتعامل مع الجانب الجمالي للّغة وعلاقة اللّغة الإبداعيّة بالمبدع أوّلًا، ثمّ بالمتلقّي ثانيًا.

استطاع عبد السّلام المسدّي أن يقيم جسرًا بين الفكر الأسلوبي والفكر العربي في تناوله ل "الأسلوب والأسلوبيّة". وبرغم صعوبة اللّغة في هذا التّناول كانت الإفادة منه بالغة في منهجيّة العرض لمسائل الأسلوبيّة، وفي التّعريف بأبرز مفكّريها، فقد أوحى في الفصل الأوّل من كتابه "الأسلوب والأسلوبيّة" الّذي عرض فيه مراحل تطوّر "علم الأسلوب" في أوروبا بأنّ الأسلوبيّة علم غربيّ وافد إلى اللّغة العربيّة، وانطلاقًا من تسليمه بأنّ كتاب "التّلخيص" ممثّل للبلاغة العربيّة رأى أنّ "الأسلوبيّة والبلاغة كمتصوّرين فكريّين...تمثّلان شحنتين متصادمتين لا يستقيم لهما وجود آنيّ في تفكير أصولي موحّد، فقرّر أنّ "الأسلوبيّة وليدة البلاغة ووريثتها المباشرة... فالأسلوبيّة امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت"(المسدّي، ١٩٨٢، ص ٥٢). وانطلق عدنان بن ذريل أيضًا من يقين مفاده أنّ العرب تعرّفوا هذا العلم من خلال الغرب، ورأى أنّ "البلاغة علم معياريّ يرسل الأحكام

التّقييميّة ويرمي إلى (تعليم) مادّته وموضوعه: بلاغة البيان، بينما تنفي الأسلوبيّة عن نفسها كلّ معياريّة وتعزف عن إرسال الأحكام"(المسدّي، ١٩٨٢، ص ٥٢- ٥٣)، وهي على العكس من ذلك "علم لغويّ حديث في الوسائل اللّغويّة الّتي تكسب الخطاب العادي، أو الأدبي خصائصه التّعبيريّة والشّعريّة فتميّزه عن غيره، إنّها تتعدّى الظّاهرة الأسلوبيّة بالمنهجيّة العلميّة اللّغويّة، وتعتبر الأسلوب ظاهرة في الأساس، تدرسها في نصوصها، فهي علميّة تقريريّة، تصف الوقائع، وتصنّفها بشكل موضوعي منهجي" (بن ذريل، ص ٢٤٩).

وبالنّظر إلى تراثنا البلاغيّ، ندرك العلاقة القائمة بين الأسلوب والبلاغة بدءًا من الرّماني الّذي رأى أنّ البلاغة هي "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ" (الرّماني، ١٩٧٦، ص ٧٥)، وأعلن أنّ "دلالة الاسماء والصّفات متناهية، فأمّا دلالة التّأليف فليس لها نهاية" (الرّماني، ١٩٧٧، ص ١٠٧). فيصف بذلك دور كلّ من المفرد والتّركيب في عمليّة الدّلالة، ويشير إلى إمكانيّة كلّ منهما في عمليّة التّواصل البشريّ وهذا الكلام له "علاقة وطيدة بما بتنا نسمّيه "أسلوبيّة"، يتناول الفاعليّة اللّغويّة في عمقها وأهمّ مقوّماتها، ويضع الإصبع بشكل أكيد على حساسيّة الدلالة اللّغويّة" (زيتون، ٢٠٠١، ص ٣٧).

ورأى الخطّابي أنّ عمود البلاغة هو في دقّة استخدام المفردات والمعرفة بالفروق بين المترادف منها، يعني أنّ نجاح الأسلوب يقوم على المعرفة بأسرار اللّغة، واتّجه إلى الرّبط بين الأسلوب والغرض أو الموضوع، فكلّما تعدّدت الموضوعات الّتي يطرقها الأديب تعدّدت الأساليب وتشكّلت بطبيعة هذا الموضوع، وعليه تعقد المقارنة بين الشّعراء في المجال الواحد الّذي يخوضون فيه، أمّا إذا افترق مدخلهم إلى موضوعات متعدّدة فإنّنا نحكم لكلّ منهم بالسّبق فيما هو فيه، وما اختصّ به كلامه، فنقول: فلان أشعر في الوصف، وفلان في الهجاء، وهكذا.. ومع هذا التّمايز بين الرّجلين نلحظ توافقًا بينهما في أنّ كلًّا منهما ربط بين الأسلوب والطّريقة الفنّيّة في الأداء، باعتبار أنّ هذا الرّبط خير وسيلة لإدراك الإعجاز القرآني (عبد المطّلب،١٩٩٤، ص ٢٣). فقد عدّ الإعجاز القرآني شكلًا راقيًا من أشكال القدرة على استخدام إمكانات اللّغة.

ورأى عبد الجبّار في كتابه "المغني" أنّ "الفصاحة لاتظهر في أفراد الكلام وإنّما تظهر في الكلام بالضّمّ على طريقة مخصوصة، ولا بدّ مع الضّمّ أن تكون لكلّ كلمة صفة"

(الهمذاني،١٩٦٠، ص ١٦). فلا بدّ إذًا من وجود صفات للألفاظ تختصّ بها، وهذه الصّفات لا يظهر حسنها إلّا بمصادفة الكلمة موقعها من الأسلوب وإلّا بمقدار تمكنّها منه. فقد اتّضح إذًا اتّضاحًا لا يدع للشّكّ مجالًا أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللّفظة لمعنى الّتي تليها أو ما أشبه ذلك ممّا لا تعلق له بصريح اللّفظ، وممّا يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثمّ تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر" (الجرجاني، ١٩٧٨، ص ٣٨). فعبد الجبّار هو أوّل من وضع (الدّلالة/الفصاحة) في عجلة التّركيب منطلقًا من مقوّمات اللّغة وأسرارها في دراسة البلاغة والأسلوب.

ونجد عبدالقاهر الجرجاني يساوي بين الأسلوب والنّظم، بل يَجْمع بينهما جمعًا عبقريًا؛ لأنّ الأسلوب عنده لا ينفصل عن النّظم بل نَجده يماثل بينهما من حيث إنّهما يشكّلان تنوّعًا لغويًا خاصًا بكل مبدع يصدر عن وعي واختيار وفهم، ومن ثَمّ يذهب عبدالقاهر إلى أنّ الأسلوب ضرب من النّظم، وطريقة فيه. ويجب أن يتوخّى فيه المبدع اللّفظ لمُقتضى التّفرّد الذاتيّ في انتقاء اللّغة عن وعي، وذلك بمُراعاة حال المخاطب؛ فإنّ الجرجانيّ قد أضاف أصلًا أصيلًا إلى نظريّة الأسلوب في البلاغة العربية القديمة؛ إذ جعل الأسلوب يقوم على الأصول العربيّة وقواعدها، فالنّظم يمتنع معنًى إذا لم ينضبط بالنّحو، وتوغّل أكثر في التّشدّد قائلًا:" لا يُتصوّر أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا أو مجرّدة من معاني النّحو" (الجرجاني، ١٩٧٨، ص ٣١٤). فهو لم يقبل ما ذهب إليه عبد الجبّار من أنّ المعاني تتعلّق بالإعراب وغيره، بل قصر الدّلالة على النّحو وحده، وربط عمليّة الإبداع الأدبي/البلاغة بآليّة النّحو الرّتيبة وجعلها عمود الفصاحة وأساسها: إذ "ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتَعرف مناهجَه التي نهجت، فلا تزيغ منها، وتحفظ الرّسوم الّتي رسمت لك، فلا تُخلّ بشيء منها"(الجرجاني، ١٩٧٨، ص ٦٤)، وبذلك جعل عبد القاهر الجرجاني من النّحو قاعدة لكلّ نظم؛ لا باعتباره أداةَ أسلوب ينتظم بها التّركيب في نسقه الإعرابيّ العام، وإنّما جعل منه كذلك مستفتحًا لما استغلق من المعنى؛ إذ الألفاظ مُغْلقةٌ على معانيها حتّى يكون الإعراب مفتاحًا لها، و"أنّ الأغراض كامنةٌ فيها حتّى يكون هو المستخرِجَ لها، وأنه المعيار الذي لا يتبيّن نُقْصانُ كلام ورجحانُه، حتّى يعرض عليه؛ والمقياس الذي لا يُعرف صحيحًا من سقيم حتّى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من يُنكر حسَّه" (الجرجاني، ١٩٧٨، ص ٧٤)، فإذا أدرك المبدع ذلك، استقام له الأسلوب، وأتاه أنّى شَاء.

إنّ الجرجاني لم يعدّ النّحو قواعد وقوالب جامدة تطبّق، بل صار مجالًا للاختيار، وفي الاختيار مكمن الإبداع والخروج علر الرّتابة والآليّة، فهو يقول:" وإذ قد عرفت أنّ مدار أمر النّظم على معاني النّ؛و والفروق الّتي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادًا بعدها"(الجرجاني، ١٩٧٨، ص ٦٩). وبهذا فإنّ الجرجاني قد انطلق من خلفيّة مفادها أنّ البلاغة/الأسلوب فاعليّة لغويّة أولًا وقبل كلّ شيء.

الخاتمة :

وفي الختام يبقى أنّنا توصّلنا إلى نتيجتين:

الأولى : إنّ البلاغة العربيّة هي النّقد عند القدماء، والدّراسات الأدبيّة القديمة لم تميّز بينهما لا بسبب النّقص في قدرة تلك المرحلة على التّمييز بل بسبب الوظيفة الموحّدة لهما والتّمييز بينهما حديث ناجم عن العودة إلى زمن "المفتاح" و"التّلخيص" لا إلى زمن "أسرار البلاغة" و"ودلائل الإعجاز"، ولعلّ استخدام كلمة بلاغة

والثّانية: إنّ الأسلوبية ليست حديثة النشأة، ولا من بنات أفكار الغرب وأوروبا، وإن كانت تطوّرت بتطوّر علم اللّغة الحديث أو لسانيّات النّصّ، فالتّوجّه الأسلوبي هو مسألة بلاغيّة في الأصل وليست وريثة للبلاغة أو مناقضة لها، ولا يجوز أن نقيم علاقة خلافيّة ما بين البلاغة والأسلوبيّة فنراهما نقيضين، أو علاقة سلاليّة ترى الأسلوبيّة مرحلة تالية للبلاغة؛ لأنّ البلاغة أكبر من الأسلوبيّة، والأسلوبيّة اتّجاه من اتّجاهات البلاغة اللّذين هما: المعياريّة، والتّقريريّة العلميّة.

قائمة المصادر والمراجع

- الجاحظ، ١٩٦٩، *الحيوان*، تحقيق عبد السّلام هارون، بيروت، دار الفكر العربي.
- الجرجاني ، ١٩٧٨، *دلائل الإعجاز*، تحقيق محمّد رشيد رضا،، بيروت، دار المعرفة.
- الجمحي، ابن سلّام، ٢٠٠١، *طبقات فحول الشّعراء*، طبعت على نسخة قديمة وقوبلت على نسخة طبع أوروبا.
- الخفاجي، ١٩٦٩، *سرّ الفصاحة*، تحقيق عبد المتعال الصّعيدي، القاهرة، مكتبة محمّد علي صبيح.
- الرّماني، ١٩٧٧، *النّكت في إعجاز القرآن*، من ضمن ثلاث رسائل، تحقيق خلف الله وزغلول، دار المعارف بمصر.
- المسدّي، عبد السّلام، ١٩٨٢، *الأسلوب والأسلوبيّة*، بيروت، الدّار العربيّة للكتاب.
- الهمذاني، عبد الجبّار، ١٩٦٠، *المغني في أبواب العدل والتّوحيد*، تحقيق أمين الخولي، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دار الكتب.
- بدوي، أحمد، ١٩٥٨، *أسس النّقد الأدبي*، مكتبة نهضة مصر.
- زيتون، علي،٢٠١١، *الإعجاز القرآني وآليّة التّفكير النّقدي عند العرب*، بيروت، دار الفارابي.

- عبّاس، إحسان، ١٩٨٣، *تاريخ النّقد الأدبي عند العرب*، بيروت، دار الثّقافة.
- عبد العزيز، عتيق، ١٩٧٢، *تاريخ النّقد الأدبي*، دار النّهضة العربيّة.
- عبد المطّلب، محمّد، ١٩٩٤، *البلاغة والأسلوبية*، مكتبة لبنان ناشرون- الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر.
- قدامة بن جعفر، ٢٠٠٦، *نقد الشّعر*، تحقيق محمّد عبد المنعم، خفاجي، بيروت، دار المكتبة العلميّة.
- مندور، محمّد، ١٩٩٦، *النّقد المنهجي عند العرب*، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر.
- هلال، محمّد غنيمي، ١٩٩٧، *النّقد الادبي الحديث*، القاهرة، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر.

المصادر الأجنبيّة

- Genette, Gerard;1966- 1972;Figures 3 vol (Seuil),(1) 1996-(2) 1969-(3)1970-1972; "la rhetorique restreinte,"Communications 16, pp158-171; reimprime dans Figures 3 (1972),pp, 184-196

References:

- Abbas, I. (1983). The History of Litrary Criticism Among the Arabs. Beirut: Dar al-Sakafa.
- al-Hamadani, A. a.-J. (1960). The Singer in the Justice and Unification Doors. (a. al-khouli, Ed.) Ministry of Culture and National Guidance: Dar al-Kitab.
- Al-Jahiz. (1969). Al-Hayawan. (A. A.-S. Haroun, Ed.) Beirut: Dar Al-fekr Al-Arabi.
- Al-Jumahi, I. S. (2001). Layers of Station Poets. Printed on an old copy and molded on a Europe print version.
- Al-Jurjani. (1978). Evidence of Miracles. (M. R. Reda, Ed.) Beirut: Dar Al-Maarifah.
- Al-khafaji. (1969). The Secret of Eloquence. (A. A.-M. Al-Saidi, Ed.) Al Qahera: Mohammad Ali Sobih.
- Al-Rommani. (1977). The Jokes in the Quranic Miracles. (K. A.-L. Zaghloul, Ed.) Egypt: Dar Al-Maaref.
- Badawi, A. (1958). Foundation of Literary Criticism. Nahdet Misr Library.
- Hilal, M. G. (1997). Modern Literary Criticism. Dar Nahdat Masr for Publishing and Printing.
- Ja'far, Q. i. (2006). Poetry Criticism. (A. a.-M. Khafaji, Ed.) Beirut: Dar al-Maktaba al-Ilmiyah.
- Mandour, M. (1996). Systematic Criticism Among the Arabs. Dar Nahda Misr for Publishing and Printing.
- Mottaleb, M. A. (1994). Rhetoric and Stylistic. Nasheroun Lebanon Library-Egyptian international Publishing Company.
- Mseddi, A. (1982). Al'uslub Wal'uslubia. Beirut: El Dar el Arabeya for Book.
- Zeitoun, A. (2011). the Quranic Miracles and the Critical Thinking Mechanism Among the Arabs . Beirut: Dar al-Farabi.
- Genette, Gerard;1966- 1972;Figures 3 vol (Seuil),(1) 1996-(2) 1969-(3)1970-1972; "la rhetorique restreinte,"Communications 16, pp158-171; reimprime dans Figures 3 (1972),pp, 184-196